وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ

(قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ ۖ بِيَدِكَ الْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) [آل عمران:26].

✉ سبحان الله! هو مالك الملك، ما هي إلا أعوام حتى يعز في ملكوته دولة على الأرض، ويذل أخرى، ثم تمر أعوام فيذل الله تعالى الأولى ويعز الأخرى.

✍ إنها السنن وسنن الله –تعالى– تحركها بعد الله الأسباب من أتى بأسباب العزة أعزه الله ، ومن أتى بأسباب الذل أذله الله.

⬅ كل ما يجري إنما يجري وفق علم الله وتقديره وحكمته الذي أسس عليه هذا الكون الفسيح، وربما طال الزمان قبل تحقق تلك المداولة حتى تنشأ أجيال في هذه الفترة العصيبة التي وصلت فيها الأمة إلى حالة شديدة من الضعف بعد أن كانت قوية لها مهابة.

📝 تخرج هذه الأجيال على الحياة فترى الضعف راسخًا، وترى التبعية للأعداء، وترى البون الشاسع في التقدم الصناعي والعسكري بيننا نحن المسلمين وبين غيرنا، فلا تكاد تلك الأجيال تصدق أو تتخيل أن كان للأمة يومًا ما تاريخها العريق الذي مكَّنها من السيطرة على ثلث الكرة الأرضية في أقل من مائة عام.

📝 بحيث امتدت حدودها من غرب الصين عبر آسيا وإفريقيا لتصل إلى غرب أوروبا؛ حيث بلاد الأندلس، وكان للأمة تاريخها المجيد في نشر العقيدة الصحيحة اللامعة النافعة، نعم لا تكاد تصدق، لكنها الحقيقة إنها سنة المداولة.

يقول سبحانه: (وَتِلْكَ الأيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ) ⬅ أي: نصرّفها بينهم بحكمة العليم الخبير، أتدرون متى أنزل الله هذه الآية؟ أنزلها بعد معركة أُحد المعركة التي حصل بها من الآلام ما حصل ولمن لخير البشر.

✋ أتدرون لماذا أنزلها سبحانه؟ أنزلها تسلية عما أصاب النبي والمسلمين في تلك المعركة من الهزيمة والخسارة في الأرواح؛ يخبرهم بأن ذلك غير عجيب في الحرب؛ إذ لا يخلو جيش من أن يغلب في بعض مواقع القتال، وقد سبق أن غلب العدو، قال –تعالى–: (إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الأيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاء وَاللهُ لاَ يُحِبُّ الظَّالِمِينَ) [آل عمران:140].

✉إن أصابكم – أيها المؤمنون – جِرَاح وقَتْل يوم أُحد، فقد أصاب الكفار جِرَاح وقَتْل مثل ما أصابكم، والأيام يصرفها الله بين الناس مؤمنهم وكافرهم بما شاء من نصر وهزيمة؛ لحِكَم بالغة؛ منها: ليَظْهَر المؤمنون حقيقةً من المنافقين، ومنها: ليُكْرِم من يشاء بالشهادة في سبيله، والله لا يحب الظالمين لأنفسهم بترك الجهاد في سبيله. المختصر في التفسير

قال –Y–: (أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ ۗ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ)[سورة البقرة: 214].

✉فهكذا كل من قام بالحق فإنه يمتحن. فكلما اشتدت عليه وصعبت، إذا صابر وثابر على ما هو عليه انقلبت المحنة في حقه منحة، والمشقات راحات، وأعقبه ذلك، الانتصار على الأعداء وشفاء ما في قلبه من الداء، وهذه الآية نظير قوله تعالى: (أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ)[آل عمران:142]

قال السعدي: هذا استفهام إنكاري، أي: لا تظنوا، ولا يخطر ببالكم أن تدخلوا الجنة من دون مشقة واحتمال المكاره في سبيل الله وابتغاء مرضاته، فإن الجنة أعلى المطالب، وأفضل ما به يتنافس المتنافسون، وكلما عظم المطلوب عظمت وسيلته، والعمل الموصل إليه، فلا يوصل إلى الراحة إلا بترك الراحة، ولا يدرك النعيم إلا بترك النعيم، ولكن مكاره الدنيا التي تصيب العبد في سبيل الله عند توطين النفس لها، وتمرينها عليها ومعرفة ما تئول إليه، تنقلب عند أرباب البصائر منحا يسرون بها، ولا يبالون بها، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ✍ وَعْدَ اللَّهِ ۖ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ ، لمن وضئ قلبه قبل بدنه، لمن طهر نفسه من حب الدنيا والخلود إلى الأرض، لمن صدق في سعيه وأخلص في طريقه، وعد من الله أن ينصره، (وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ)[الحج:40]، نحن لا ننتصر بكثرة العدد والعدد، إنما بقوة الإيمان بالله أولا، ثم بالإعداد بما تستطيعه الأمة ثانيا.

قال –Y–:(إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ ۚ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ)[الأنفال:9-10].

قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ ... ﴾ [آل عمران: 123] أي قلة قليلة طائعة لله عابدة، وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ، والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، الحمد لله وحده، نصر عبده، وأعز جنده، وهزم الأحزاب وحده، تأنس القلوب اليوم وهي تعيد النظر مرة بعد أخرى في عزة غزة وأبطالها، وثبات أهلها رغم تكالب الظالمين عليها، والله إن غزة أعادت للأمة الإسلامية هيبتها وعزتها بعدما وصلنا إلى حالة الاحتضار، أعادت لنا الحياة، بالرغم من أن هذه الفئة المجاهدة الصابرة تقف وحدها في مواجهة العالم، فالغرب وغيرهم من المنافقين الجاحدين منحازين بالكلية للصهاينة ، ويقدمون لهم ما يحتاجوه من دعم مادي ومعنوي من أجل استعادة صورتهم التي مرغتها المقاومة بالوحل، بعدما كبدوهم خسائر فادحة: بشريًا، واقتصاديًا، وسياسيًا، وعسكريًا، فقد قتل المئات وجرح الآلاف وأسر العشرات من جنود الاحتلال المعتدين، وأجبر الاحتلال على إجلاء عشرات الآلاف من سكان المغتصبات. اقتصاديًا هناك خسائر بمليارات الدولارات، وقد تصل إلى 100 مليار دولار، نتيجة تدهور قيمة الشيكل وخسائر تقدر بنحو 45 مليار، وتوقف حركة الطيران، والشلل التام في القطاع السياحي وخسائر تقدر بنحو 4 مليار دولار، والخسائر الجسيمة في البورصة وتقدر بحوالي 30 مليار، وخسائر في قطاع الطاقة تقدر بنحو 6 مليار دولار، بالإضافة إلى التكاليف المباشرة للحرب، والتي قدرت بنحو 7 مليار دولار خلال الأسبوع الأول فقط، وعلى الصعيد العالمي ربحت المقاومة نصرًا إعلاميًا لا يقل عن حجم الانتصار العسكري الذي حققته على الأرض، وذلك من خلال التوثيق والتصوير الاحترافي لمجريات عملية (طوفان الأقصى)، والذي أظهر بسالة وشجاعة المقاومين، وجبن وخور جنود الاحتلال.

🡸والناشطون في أنحاء كثيرة من العالم فضحوا الانحياز الغربي لليهود ، وكشفوا أكاذيب المسؤولين الصهاينة والغربيين بشأن الأحداث الدامية في قطاع غزة، والمدافعون عن حقوق الإنسان أين هم فضحوا بانحيازهم للظالمين، والمخذلين المثبطين المنافقين يقولوا ماذا استفدنا من هذه المعركة؟ والجواب أنهم انتصروا، حققوا نصر وفوز مبين، فمنذ زمن طويل لم ترفع راية الإسلام، وفي الأونة الأخيرة الحديث كان فقط عن عدد الشهداء من الأبرياء وعدد الأسرى ، والخسائر المادية والمعنوية في صفوف الموحدين، ولا يتحرك ساكن في الأمة الإسلامية ، الكل يقف عاجزًا ليس عن وقف الاعتداءات، بل وعن إدخال المساعدات الإنسانية للقطاع المحاصر منذ سنوات، بل الأعظم ما صرح به المجاهدين صرحوا بعدم حاجتهم لشيء إلا فقط أن يسلموا من الخيانات والمؤامرات، حسبنا الله ونعم الوكيل وإلى الله المشتكى، هم فعلوا ما عجزت عنه أمه بأسلحتها وجيشها وعددها وعددها ومؤتمراتها ومجالس أمنها، ألا يكفي يا أمة محمد شعارات وخطابات، وفلسفات، أوصلتم الأمة إلى الشلل، أصبحوا مقعدين عن العمل، نحن قادرين لسنا عاجزين كم صورتم

للعالم، الله أصدق من المثبطين المنافقين المخذلين، وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا: {كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ} [سورة البقرة: 249]، {الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ} [آل عمران: 173]، وصدق رسول الله ρ: "لا يَزالُ مِن أُمَّتي أُمَّةٌ قائِمَةٌ بأَمْرِ اللهِ، لا يَضُرُّهُمْ مَن خَذَلَهُمْ، ولا مَن خالَفَهُمْ، حتَّى يَأْتِيَهُمْ أمْرُ اللهِ وهُمْ علَى ذلكَ". صحيح البخاري.

السنة ماضية على الجميع والمسلم الموحّد لا يتسخط كغيره من الملل المنحرفة، ولا يثبط ويشكك كالمنافقين الضائعين، بل ينتفع بعلمه عن الله، وفهمه لآيات الله، وينتفع بصبره ويبادر في الإصلاح، يبصر نور الأمل في ظلمة الألم، ويرى العطايا في منحنيات البلايا، فقد يكون في الحدث الأليم إعلاء للمؤمن في مقامات الصبر ورفع لدرجاته، وتكفير عن ذنوبه؛ كما حدث في حديث فاطمة بنت اليمان تقول : " أتينا رسولَ اللهِ ρ نعودُه في نسائه فإذا سقاءٌ مُعلَّقٌ نحوَه يقطرُ ماؤُه عليه من شدَّةِ ما يجدُ من حرِّ الحُمَّى قلنا يا رسولَ اللهِ لو دعوتَ اللهَ فشفاك فقال رسولُ اللهِ ρ إنَّ من أشدِّ الناسِ بلاءً الأنبياءُ ثم الذين يلونَهم ثم الذين يلونَهم ثم الذين يلونَهم ". السلسلة الصحيحة

"قُلنا: يا رَسولَ اللهِ، لو دَعَوتَ اللهَ فشَفاكَ"؛ وقالوا ذلك لِأنَّهم يَعلَمونَ أنَّه مُستَجابُ الدَّعوةِ، فلو دَعا اللهَ لَرَفعَ عنه المَرَضَ، ولكِنَّ النَّبيَّ ρ يُعلِّمُ الناسَ الصَّبرَ، ويُبيِّنُ فَضيلةَ القَبولِ بقَضاءِ اللهِ بالبَلاءِ والشِّدَّةِ مع الرِّضا، "فقال رَسولُ اللهِ ρ : إنَّ مِن أشَدِّ الناسِ بَلاءً"، أي: مِن أكثَرِهم إصابةً بأقوى البَلاءِ "الأنبياءَ، ثم الذين يَلونَهم، ثم الذين يَلونَهم، ثم الذين يَلونَهم" فيَكونُ بَعدَ الأنبياءِ في الإصابةِ بالبَلاءِ الذين يأتونَ بَعدَهم في الرُّتبةِ والمنزِلةِ مِن حيثُ قُوَّةُ الإيمانِ؛ وذلك لِأنَّ المرءَ يُبتَلى على قَدرِ دِينِه، فإنْ كانَ في دِينِه صَلابةٌ اشتَدَّ بَلاؤُه، وإنْ كانَ في دِينِه رِقَّةٌ ابتُلِيَ على حَسَبِ ذلك. الدرر السنية

وجاء في صحيح الجامع من حديث أبي سعيد قوله –ρ–: " إنَّ الرجلَ لَيصيبُه البلاءُ حتى يمشيَ في الناسِ ما عليه خطيئةٌ "، ينال هذا بصبره واحتسابه فالبلاء يجتهد في تفسيره بحسب وضع الإنسان وظاهر سيرته وحقيقة علاقته بربه فقد يكون البلاء عقوبة، وقد يكون رفعة لمقام العبد عند الله، وقد يكون اختبار لقوة إيمانه، وإعانة له على العودة إلى رحاب الدعاء، والتضرع والرجاء، ولقد قال –تعالى– بعد غزوة أحد: (وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ) [آل عمران:154].

وقال سبحانه: (وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ * سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ * وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ) [محمد: 4– 6].

حبيباتي المباركات: ونحن نسمع أخبار غزة وإدلب وغيرهم من المستضعفين، -فرَّج الله عنهم ونصر جنودهم وأهلك عدوهم-، ينبغي ألا يراود أحدنا أدنى ذرة من شك في عدل الله المطلق وحكمته الأبلغ ورحمته الأوسع سبحانه، وأنه مهما جرى على الأرض من مآسٍ وآلام، فالعاقبة حتمًا وجزمًا للمتقين، فقد أعمل فرعون قتله بالأطفال وأدار حملة شرسة فتك فيها بالأطفال الرضع حتى عبر القرآن بفعل فلم يقل يذبح أبناءهم، بل قال يُذبّح أبناءهم بالباء المشددة إشارة إلى المبالغة في سفك الدماء، دماء الأطفال.

وفي مقام آخر لم يقل يَقتُلون، بل قال (يُقَتِّلُونَ أَبْنَاءَكُمْ) ثم ماذا؟ ثم كانت العاقبة للمتقين، تسكن آلامهم، وتتوقف أوجاعهم، وينتهي الهم والغم والحزن بمفارقة أرواحهم لأبدانهم، وتبدأ سعادتهم وتحقق آمالهم، وتقر أعينهم بلقاء رب العالمين، أما فرعون ومن معه من الطغاة الفاجرين القاهرين للعباد فعذابهم بعد عذاب الغرق وآلامهم وأوجاعهم والشدة والتعذيب في إخراج أروحهم وضربهم بمطارق من حديد واستمرار عذابهم في قبورهم فتكون عليهم جحيم إلى يوم الدين ، ليس العذاب فحسب، بل أشد وأسوء العذاب، قال سبحانه: (وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ * النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا) قال جمهور المفسرين "أي تعذب أرواحهم في القبر" (وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ) [غافر: 45-46]، يوم القيامة يدخلهم النار ليذيقهم أشد العذاب ويقال لهم فَذُوقُوا فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا.

ذبَح فرعونُ آلافَ الأطفالِ كي لا يأتِيَ موسى ، وعندما جاء موسى " ربَّاهُ في بيته " قدرُ اللهِ نافذٌ لا محالة " كنْ مطمئنا. وهم اليوم يجرمون ويبيدون المسلمين ليستولوا على أرضهم ويسلبوهم حقهم في وطنهم ولن يكون، وعد من رب العالمين أن نهايتهم في هذه الأرض المقدسة، يجتمعوا فيها لزوالهم.

وأحرق أصحاب الأخدود المؤمنين من رجال ونساء وأطفال دون تفريق، ولكن كانت العاقبة لأهل التوحيد قال -تعالى- في أصحاب الأخدود: (إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ) [البروج:10]، قال: (فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ) لكن ما اكتفى زاد ولهم عذاب الحريق.

فالحرق يكون قطعًا بالنار ففي هذا تأكيد على تعذيبهم بالنار؛ لأن عذاب جهنم ليس بالنار وحدها، بل هو أصناف وأنواع، نسأل الله السلامة؛ فهناك الزمهرير، وهناك طعام الضريع الذي لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِن جُوعٍ ، وهناك شجرة الزقوم، وهناك ماء الصديد الذي يتجرعه الظالم ولا يكاد يسيغه، يتحساه مرة بعد مرة فيغصّ به ويطول عذابه، وهناك ماء الحميم الذي يملأ البطن ويقطع الأمعاء.

لكن ذكر عذاب الحريق؛ لأنهم حرقوا المؤمنين في الدنيا وفي هذا تخصيص وتأكيد على الجزاء والوفاق.

وقد يكون أخذ الله –تعالى– للظالم أخذًا سريعًا، وقد يمهله لحكمة تغيب عن المظلومين، بل قد يؤخر الانتقام منه إلى ما بعد هلاكه، ولقد قال سبحانه: (وَلاَ تَحْسَبَنَّ اللهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الأَبْصَارُ) [إبراهيم:42]، وقال سبحانه: (فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا * يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا * وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وِرْدًا) [مريم: 84- 86].

وفي الصحيح من حديث أبي موسى –رضي الله عنه– قال –ρ–: "إن الله ليملي للظالم" يمهله حتى يتمادى في ظلمه والعياذ بالله، ولذلك قال –تعالى–: (وَلاَ يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُواْ إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ) [آل عمران:178].

أما المؤمنون فالواجب عليهم أن يجتهدوا في دفع البلاء عن أنفسهم بكل ما يستطيعون من سبب بالدعاء، والتضرع إلى الله باستجماع وسائل القوة المادية، وبالاستنصار بإخوانهم وهم في هذا كله يرجون الله –تعالى– أن يقبل صبرهم واحتسابهم وأن يفرّج عنهم.

قال –تعالى–: (أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاء وَالضَّرَّاء وَزُلْزِلُواْ حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللهِ أَلا إِنَّ نَصْرَ اللهِ قَرِيبٌ) [البقرة:214].

فإنهم مهما أعملوا في إخواننا المسلمين الموحدين قتلاً وتشريدًا هدماً وتحريقاً؛ فإن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين، ☜ولكنَّ المنافقين لا يعلمون ولا يفقهون، (وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ)[المنافقون:8].

☜وكذلك الكفرة لا يعلمون ولا يفقهون وقال تعالى – عن سَحَرَةِ فِرعونَ: ﴿ وَقَالُواْ بِعِزَّةِ فِرْعَونَ إِنَّا لَنَحْنُ الغالبون ﴾ [الشعراء: 44] فما أخْيَبَه مِنْ قَسَمٍ؛ لأنَّ عِزَّةَ فِرعونَ عِزَّةٌ كاذبة، وقال سبحانه: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ فِي الأذَلِّينَ﴾ [المجادلة: 20]. ←فهذا وعيدٌ لِمَنْ حادَّ اللهَ ورسولَه بالكفر والمعاصي؛ أنه مَخْذولٌ مَذْلولٌ، لا عاقبةَ له حميدة، ولا رايةَ له منصورة.

والمنافقون – مَرْضَى القلوب – طَلَبوا العزَّةَ؛ بمُوالاتهم للكُفَّارِ! قال تعالى: ﴿ بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا * الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴾ [النساء: 138، 139]. ←ساءَ ظَنُّ المنافقين بالله تعالى، وضَعُفَ يقينُهم بنصرِ اللهِ لعباده المؤمنين؛ فاتَّخذوا الكافرين أولياءَ، يَتَعَزَّزُونَ بهم ويَسْتَنْصِرونَ. فأيُّ شيءٍ حَمَلَهم على ذلك؟ أيبتغون عندهم العِزَّةَ؟ والحال أنَّ العِزَّةَ لله جميعًا، فإنَّ نواصِي العبادِ بيده، ومشيئَتُه نافذةٌ فيهم. وقد تكفَّلَ بِنَصْرِ دِينِه، وعبادِه

المؤمنين، ولو تَخَلَّلَ ذلك بعضُ الاِمتحانِ لعباده المؤمنين، وإدالةُ العدوِّ عليهم إدالةً غيرَ مُستَمِرَّةٍ، فإنَّ العاقبةَ والاستقرارَ للمؤمنين.

وهذا عَبْدُ اللهِ بنُ أُبَيّ بن سَلولٍ، زعيمُ المنافقين: عندما ابْتَغَى العِزَّةَ بموالاتِه لِكُفَّارِ مَكَّةَ؛ أَذَلَّهُ اللهُ تعالى. ففي غزوةِ بني المصطلقِ قال عبدُ اللهِ بنُ سلولٍ: (لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ) رواه البخاري ومسلم. يعني – قَبَّحَهُ اللهُ: بالأعَزِّ نفسَه الخبيثةَ، وبالأذلِّ رسولَ الله ρ ، ولَمَّا قَفَلَ النَّاسُ رَاجِعِينَ إِلَى الْمَدِينَةِ وَقَفَ الصَّحابِيُّ الجليلُ "عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بنِ سلولٍ" رضي الله عنه عَلَى بَابِ الْمَدِينَةِ، وَاسْتَلَّ سَيْفَهُ، فَجَعَلَ النَّاسُ يَمُرُّونَ عَلَيْهِ، فَلَمَّا جَاءَ أَبُوهُ "عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أُبَيّ بنِ سلولٍ" قَالَ لَهُ ابْنُهُ: وَرَاءَكَ! فَقَالَ: مَا لَكَ؟ وَيْلَكَ! فَقَالَ له ابنُه: "وَاللَّهِ! لَا تَجُوزُ مِنْ هاهنا [أي: لا تَمُرُّ] حَتَّى يَأْذَنَ لَكَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ فَإِنَّهُ الْعَزِيزُ، وَأَنْتَ الذَّلِيلُ". فَلَمَّا جَاءَ رَسُولُ اللَّهِ ρ – وَكَانَ إِنَّمَا يَسِيرُ سَاقَةً [أي: خلفَ الجيشِ يَسُوقُه] فَشَكَا إِلَيْهِ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أُبَيّ بنِ سلولٍ ابْنَهُ، فَقَالَ ابْنُهُ عَبْدُ اللَّهِ: وَاللَّهِ! يَا رَسُولَ اللَّهِ! لَا يَدْخُلُهَا حَتَّى تَأْذَنَ لَهُ، فَأَذِنَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ρ. فقال له ابنُه: أَمَا إِذْ أَذِنَ لَكَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَجُزِ الْآنَ. وصَدَقَ اللهُ العزيزُ: ﴿ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [المنافقون: 8].

والمؤمنون – الصَّادِقون المُوَحِّدون – أيقنوا أنَّ العِزَّةَ كلَّها لله، وبيد الله، يُؤتيها مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِه، فطلبوها من اللهِ وحدَه. قال الله تعالى: ﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يَبُورُ ﴾ [فاطر: 10]. والمعنى: يا مَنْ يريدُ العِزَّةَ، اطلبها مِمَّنْ هي بيده؛ فإنَّ العِزَّةَ بيد الله، ولا تُنال إلاَّ بطاعته؛ من الأقوالِ الطَّيِّبةِ، والأعمالِ الصَّالحة. فهذه الأمور هي التي يَرْفَعُ اللهُ بها صاحِبَها ويُعِزُّه في الدُّنيا والآخرة. وأمَّا السَّيِّئاتُ فإنها بالعكس؛ يُريد صاحِبُها الرِّفْعَةَ بها، ويَمْكُرُ ويَكِيدُ، ويعودُ ذلك عليه، ولا يزدادُ إلاَّ إهانةً ونزولًا.

إن الشعور بالدونيّة والهزيمة النفسية من أشر ما ابتليت به هذه الأمة وهذا يعارض ما أخبر الله به في كتابه، أن العزة لأمة الإسلام، لقد أكّد الله –سبحانه– استئثاره بالعزة جميعاً في ثلاث آيات من كتابه العزيز؛ وأنه لن يجد العزة إلا من تولاه الله، وطلبها عنده، وركن إلى حماه، يقول الله –جل في علاه–: (مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا)[فاطر:10]، ولما كانت العزة لله، وهو ربها؛ صار سبيلها مقطوعاً إلا من سبيله؛ فلا تطلب إلا منه. ←وقال تعالى مخاطباً لنبيه ρ ومسليا له ومصبراً على ما يلقاه من أذى من الكفار: (وَلاَ يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلّهِ جَمِيعًا هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ) [يونس:65].

وأعظم سبيل لتحصيلها: الإيمان بالله –جل وعلا–، وبقدر ما حقق العبد من الإيمان يكون حظه من العزة، قال عز وجل : (وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ)[المنافقون:8]؛ مهما بلغ قرحها وغار جرحها واستشرس عدوها (وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)[آل عمران:139]؛ إذ بالإيمان تكون ولاية الله التي لا يذل بها متمسّك، ولا يعز بتركها عادٍ، كما قال رسول الله –ρ–: "إِنَّهُ لَا يَذِلُّ مَنْ وَالَيْتَ، وَلَا يَعِزُّ مَنْ عَادَيْتَ".

ومن أجلى حقائق الإيمان التي تكمن فيها العزة حسن الطاعة والاستجابة لله ورسوله –ρ–، ومِصْداقُه: قولُه ρ: «جُعِلَ الذِّلَّةُ وَالصَّغَارُ عَلَى مَنْ خَالَفَ أَمْرِي» صحيح – رواه أحمد.

قال أبو بكر الشِّبْلِي رحمه الله: (مَن اعْتَزَّ بِذِي العِزِّ؛ فَذُو العِزِّ لَهُ عَزَّ).

وقال رَجُلٌ لِلحَسَنِ: ("إِنِّي أُرِيدُ السِّنْدَ فَأَوْصِنِي". قال: "حَيْثُ ما كُنْتَ فَأَعِزَّ اللَّهَ يُعِزُّكَ". قال: "فَحَفِظْتُ وَصِيَّتَهُ؛ فَمَا كَانَ بِهَا أَحَدٌ أَعَزَّ مَنِّي حَتَّى رَجَعْتُ").

حتى غدا سنام العز لأهل الإيمان شعاراً ودثاراً، يصف ذلك الحالَ إبراهيمُ النخعي بقوله: "كَانُوا يكْرهُونَ للْمُؤْمِنين أَن يُستذلوا؛ فيجترئَ عَلَيْهِمُ الْفُسَّاق".

وقد اعْتَزَّ سَلَفُنا الصَّالِحُ بالإسلام؛ فأعزَّهم اللهُ تعالى، وأعْلَى شأنَهم:

قال عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رضي الله عنه: «إِنَّا كُنَّا أَذَلَّ قَوْمٍ فَأَعَزَّنَا اللَّهُ بِالْإِسْلَامِ، فَمَهْمَا نَطْلُبُ الْعِزَّةَ بِغَيْرِ مَا أَعَزَّنَا اللَّهُ بِهِ أَذَلَّنَا اللَّهُ» صحيح موقوف – رواه الحاكم.

وقال سفيانُ الثوري رحمه الله: (كان يُقال: مَنْ أَرَادَ عِزًّا بِلَا عَشِيرَةٍ، وهَيْبَةً بِلَا سُلْطَانٍ؛ فَلْيَخْرُجْ مِنْ ذُلِّ مَعْصِيَةِ اللهِ عز وجل إلى عِزِّ طَاعَتِهِ).

يقول الحسن البصري: "مَنْ تَعَزَّزَ بِالْمَعْصِيَةِ أَوْرَثَهُ اللهُ –عَزَّ وَجَلَّ– الذِّلَّةَ، وَلا يَزَالُ الْعَبْدُ بِخَيْرٍ مَا كَانَ لَهُ وَاعِظٌ مِنْ نَفْسِهِ"

وقال الحسنُ البصريُّ رحمه الله – واصِفًا الفَجَرَةَ والفاسِقين المُنَعَّمين: (إِنَّهُمْ وَإِنْ طَفْطَفَتْ بِهُمُ البِغَالُ، وهَمْلَجَتْ بِهُمُ البرَاذِينُ؛ فَإِنَّ ذُلَّ المَعْصِيَةِ فِي رِقَابِهِمْ، أَبَى اللهُ إِلاَّ أَنْ يُذِلَّ مَنْ عَصَاهُ).

خَرَجَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ إِلَى الشَّامِ وَمَعَنَا أَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الْجَرَّاحِ فَأَتَوْا عَلَى مَخَاضَةٍ وَعُمَرُ عَلَى نَاقَةٍ لَهُ فَنَزَلَ عَنْهَا وَخَلَعَ خُفَّيْهِ فَوَضَعَهُمَا عَلَى عَاتِقِهِ، وَأَخَذَ بِزِمَامِ نَاقَتِهِ فَخَاضَ بِهَا الْمَخَاضَةَ، فَقَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ: يَا أَمِيرَ

الْمُؤْمِنِينَ، أَنْتَ تَفْعَلُ هَذَا؟! تَخْلَعُ خُفَّيْكَ وَتَضَعُهُمَا عَلَى عَاتِقِكَ، وَتَأْخُذُ بِزِمَامِ نَاقَتِكَ، وَتَخُوضُ بِهَا الْمَخَاضَةَ؟! مَا يَسُرُّنِي أَنَّ أَهْلَ الْبَلَدِ اسْتَشْرَفُوكَ، فَقَالَ عُمَرُ: "أَوَّهْ! لو لَمْ يَقُلْ ذَا غَيْرُكَ أَبَا عُبَيْدَةَ لجَعَلْتُهُ نَكَالًا لِأُمَّةِ مُحَمَّدٍ -ρ-؛ إِنَّا كُنَّا أَذَلَّ قَوْمٍ فَأَعَزَّنَا اللَّهُ بِالْإِسْلَامِ؛ فَمَهْمَا نَطْلُبُ الْعِزَّةَ بِغَيْرِ مَا أَعَزَّنَا اللَّهُ بِهِ أَذَلَّنَا اللَّهُ".

وهذا ربعي بن عامر الصحابي الجليل البطل، الذي ضرب مثالاً عجيبًا في عزة المؤمن، ففي معركة القادسية وعندما طلب رستم قائد الفرس من سعد بن أبي وقاص أن يبعث إليه رسولاً يتفاوض معه، فدخل عليه ربعي -رضي الله عنه-، وقد زينوا مجلسهم بالنمارق المذهبة والحرير، وأظهروا اليواقيت واللآلئ الثمينة، وقد جلس رستم على سرير من ذهب، ودخل ربعي بثياب صفيقة وسيف مثلم وترس ورمح بدائية، وفرس قصيرة، فلم يزل راكباً حتى داس بفرسه على طرف البساط، ثم نزل وربطها ببعض تلك الوسائد، وأقبل وعليه سلاحه ودرعه، فقالوا له: ضع سلاحك، فقال: إني لم آتكم وإنما دعوتموني، فإن تركتموني هكذا وإلاّ رجعت. فقال رستم: ائذنوا له، فأقبل يتوكأ على رمحه فوق تلك النمارق يخرقها برمحه، فقالوا له: ما جاء بكم؟ قال: الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جَوْر الأديان إلى عدل الإسلام، فأرسَلَنَا بدينه إلى خلقه لندعوهم إليه، فمن قبل ذلك قبلنا منه ورجعنا عنه، ومن أبى قاتلناه أبدًا حتى نفضي إلى موعود الله، قالوا: وما موعود الله؟ قال: الجنة لمن مات على قتال من أبى، والظفر لمن بقي.

لقد عاش هذا الصحابي الجليل العزة في أسمى معانيها، وما ذاك إلا لأن الإيمان عظم في قلبه فغدت الدنيا عنده حقيرة ومباهجها صغيرة وكبيرها صغير لا يعدو قدره.

العزة حقيقة متى استقرت في القلب قوّته؛ فاستعلى بها على كل أسباب الذل والانحناء لغير الله، وهي منزلة شريفة تنشأ عن معرفة المرء بقدر نفسه وإكرامها عن الضراعة للأغراض والأعراض الدنية؛ فيترفّع بها عما يضر دينه وإيمانه. وليس ذلك من الكبر في شيء؛ إذ الكبر جهلٌ بقدر النفس وإنزال لها فوق منزلتها؛ ولهذا لما قيل للحسن البصري -رحمه الله-: "ما أعظمك في نفسك! فقال: لست بعظيم، ولكني عزيز".

ألا إنما التقوى هي العز والكرم *** وحبك للدنيا هو الذل والسقمَ

وليس على عبد تقي نقيصة *** إذا حقق التقوى وإن كان معدما

روى الحاكم وغيره بسند صحيح أن حكيم بن حزام ذهب إلى السوق يومًا، فوجد فيها حلة تباع، وكانت حلة نفيسة جميلة، فقال: حلة من هذه؟ قالوا: هذه حلة ذي يزن ملك اليمن، فاشتراها حكيم بخمسين

دينارًا، ثم ذهب وأهداها للنبي، -ρ- فلبسها رسول الله وصعد بها المنبر، فما رُئيت حلة أجمل منها وهي على رسول الله، فنزل -ρ- وألبسها لحبّه وابن حبه أسامة بن زيد؛ وذلك لأنه -ρ- كان عازفًا عن الدنيا، فلبسها أسامة، وكان آنذاك فتى صغيرًا، وكان دميم الخِلقة، وكان أبوه مولى، فلبسها ونزل بها السوق، فرآه حكيم بن حزام، -ولم يكن قد أسلم بعد- فقال له: حلة من هذه؟ فقال: حلة ذي يزن ملك اليمن، فقال له حكيم: أوَتلبس أنت حلة ملك اليمن؟! قال: نعم، أنا خير من ذي يزن، وأمي خير من أمه، وأبي خير من أبيه.

⬅ انظروا إلى هذه العزة وكيف كان يشعر بها ذلك الفتى المسلم، كان يشعر بأنه أفضل من ذي يزن ملك اليمن، لماذا؟ لأنه مسلم وذاك كان كافرًا، فلأصغر رجل من المسلمين هو أفضل من كفار الدنيا كلها بالغاً ما بلغوا من مكانة الدنيا وحطامها، لا لشيء سوى أنه مسلم وهم كفار، (وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ)[المنافقون:8]

✉ الإنسان بفطرته يحب العزة لنفسه، ويكره الذل والذلة، والناس يتلمسون مواطن العزة ويطلبونها لأنفسهم؛ ولذا يسعون للجاه؛ لما فيه من عزة على من يعرفونهم، ويكدحون في جمع المال لنيل العزة به، يستوي في ذلك المؤمن والكافر والبر والفاجر، إلا أن المؤمن قوي بإيمانه، عزيز بدينه، قد ذل لله -تعالى- فأعزه الله —سبحانه-، فلا يذل لسواه، ولا يخشى غيره.

✉ وحتى ولو كان المؤمن ضعيفاً مستضاماً، فإنه لا يذل للخلق، ولا يتنازل عن شيء من دينه، ذلك أنه عزيز بعزة الله -تعالى-؛ يوقن أن الله قد شرّفه بعبوديته له، والانتساب لدينه، والفخر بإسلامه، وتطبيق شريعته، ولو سخر منه الساخرون، واستهزأ به المنافقون. فهذه هي العزة بالحق؛ لأنها اعتزاز بمن يملك العزة، ولا عزة لمخلوق إلا به -عز وجل- (مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا)[فاطر:10]، (سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ)[الصافات:180].

✉ ومن أوصاف أهل هذه العزة أنهم (أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ)[الفتح:29]، ونعتهم الله -تعالى- بقوله -سبحانه-: (أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ)[المائدة:54]، فلا يلينون في الحق، ولا يداهنون الخلق، ولا يستكينون للعدو، ولا يتنازلون عن شيء من دينهم، قال -تعالى-: (فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا)[آل عمران:146].

وقال أبو سلمة بن عبد الرحمن: "لم يكن أصحاب رسول الله -ρ- متحزقين ولا متماوتين، وكانوا يتناشدون الشعر في مجالسهم ويذكرون أمر جاهليتهم فإذا أُريد أحدهم على شيء من دينه دارت حماليق عينيه كأنه مجنون"؛ أي: غيرةً لله -تعالى-، ونصرةً لدينه، واعتزازًا بالحق".

ومن اعتز بغير الله -Y- فإن عاقبته إلى ذلّ، وانظروا إلى حال بعض طغاة العصر كيف هووا من ذرى العلياء والمجد إلى أسفل دركات الذل؛ لأنهم اعتزوا بغير الله -Y- فأذلهم الله -Y-، ومن طلب عزاً بباطل أورثه الله ذلاً في الدنيا قبل الآخرة..

إن أخطر ما يصيب الأمة الإسلامية روح الهزيمة النفسية وضعف الهمة الذي يولّد الانحطاط والتقهقر والتخلف، إن الأمة الإسلامية وهي تعيش هذه المرحلة الحرجة من تاريخها بحاجة إلى أن تبث في نفوس أبنائها معاني العزة، وأن تعمقها في شخصياتهم، وتصقل بها فكرهم ورأيهم، وترفع بها ذكرهم، وتدفعهم بها نحو المعالي والسؤدد والشموخ.

الأمة اليوم أحوج ما تكون إلى الالتزام بالعزة والأخذ بمقوماتها على كل مستوياتها، جماعات وأفراداً، ألا وإن الاعتزاز بالدين من أقوى ما نواجه به أعداءنا في زمن تداعت فيه الأمم علينا كما تداعى الأكلة إلى قصعتها، فهلم إلى طريق العزة والمجد والخلود.

ووالله إن العزة لأهل الحق والإيمان باقية ما استقاموا على النهج، وأصلحوا نفوسهم، وأخذوا بدروب الاستقامة ودروب الفضيلة؛ وأسباب التقدم والرقي، ذلك أن العزة لا تجتمع مع السفاسف والدنايا والبعد عن منهج الله.

ابن آدم عش ما شئت فإنك ميت، وأحبب من شئت فإنك مفارقه، واعمل ما شئت فإنك مجزي به، البر لا يبلى، والذنب لا ينسى، والديان لا يموت، وكما تدين تدان، كما تدين تدان.

أسأل الله -تعالى- أن يوحّد صفوفنا وأن يلمّ شتاتنا، وأن يهدي للحق ضالنا، وأن ينزع الخوف من قلوبنا، وأن يصلح أحوالنا، وأن يجعلنا نصرة لإخواننا في كل مكان، وأن يقبل دعاءنا، وألا يردنا من واسع فضله ولا عظيم عفوه.

المراجع:

1. العزة لله: عبد العزيز بن عبد الله السويدان.

❷ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين (خطبة): د. محمود بن أحمد الدوسري.

❸ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين: عبدالله محمد الطوالة.